الأسقف لفيجري ونشاطه التبشيري في وادي الشلف*

الدكتور أبو عمران الشيخ

1. سياسة الغزو والإدماج

صرّح عدد من الشخصيات العسكرية والدينية الفرنسية بأن احتلال الجزائر وحده لا يكفي، فينبغي أن يدعم بإدماج الجزائريين في المجتمع الفرنسي من ناحية وتنصيرهم من ناحية أخرى، وإن كان القائد "دي بورمون" قد وعد في تصريح 5 جويلية 1830 بعد استيلائه على مدينة الجزائر باحترام دين الجزائريين وعاداتهم وممتلكاتهم، فكشف الغطاء عن نواياه عندما استقبل المرشدين العسكريين بمناسبة الاحتفال الديني الذي انتظم بعد انتصاره فقال : "قد فتحتم من جديد معنا باب المسيحية في إفريقيا، ورجاؤنا أن تزدهر فيها عمّا قريب الحضارة التي كانت قد انطفأت بها"[1]- وقد أكّد أحد المرشدين العسكريين وهو "الأب دو بيجير" أن مرشدي الجيش جاءوا ليحتلوا

*. محاضرة ألقيت بمناسبة ملتقى الفكري الإسلامي، الجزائر.

1. دوبيجيز- ص.166، وكان هذا القس مرشدا عسكريا رافق الجيش الفرنسي الذي احتل الجزائر.

هم أيضا إفريقيا هذه باسم الإنجيل[1]. وقال "لويس فويو" كاتب "بيجو" سنة 1841، في كتاب له : "إن الجزائر ممتلكة مسيحية وتكون تونس والمغرب مثلها قبل زمن طويل"[2]، ثم أضاف : "إن العرب لن يكونوا لفرنسا إلاّ إذا صاروا فرنسيين، ولن يكونوا فرنسيين إلاّ إذا تنصروا"[3]- وفي مقالة نشرت سنة 1846، شرح أحد الضباط الفرنسيين الذي لم يذكر اسمه لماذا يجب تطبيق سياسة التنصير فقال : "إن تعصب المسلمين هو الأمر الحقيقي الذي يدعم المقاومة التي نواجهها في إفريقيا، وهذا الدين الإسلامي الذي احترمناه إلى يومنا هذا نقترح الآن بجرأة محاربته، وهكذا نثبت قوتنا وننشر طقوسنا على أنقاض الإسلام"[4]!، ومعنى هذا كله أن الإسلام قد قاوم الاحتلال الفرنسي فرأى المستعمرون إزالة هذا الدين خدمة لمصلحتهم، وقال أسقف الجزائر السيد "دوبوش" : "إن وجود الإسلام قد انتهى وبعد نصف قرن لن يبقى له أثر إلاّ عند الهمجيين، وستبعث به أوروبا إلى الصحاري التي لجأ إليها لينقرض هناك، وهكذا ستستكمل مشروعها الذي بدأت في تنفيذه أثناء الحروب الصليبية"[5]!، أما الأسقف الذي تولّى الأمر بعد "دوبوش" وهو "بافي" فقد رأى من واجبه محاربة القرآن وتنصير المسلمين[6]، وهكذا تتضح فكرة المستعمرين وأن احتلال الأرض لا يكفي، وأنه يجب محاربة دين السكان وتحويلهم إلى نصارى فتتحول الجزائر المسلمة إلى أرض فرنسية مسيحية.

---

1. نفس المصدر، ص. 28.
2. لويس فويو، ص. 13.
3. نفس المصدر، ص. 65.
4. رسالة لضابط فرنسي، ص. 7.
5. الجنرال سبيلمان، ص. 23.
6. شارل اندري جوليان، ص. 262.

2. أراء لافيجري الأساسية

كان لافيجري قد تشبّع بهذه الآراء الاستعمارية قبل أن يتولى رئاسة الكنيسة في الجزائر، وقد عيّن في هذا المنصب بتزكية من الوالي العام الماريشال "ماك ماهون"، إلاّ أنه سينشب بينهما الخلاف فيما بعد.

إن لافيجري أظهر عداوته للإسلام مثلما فعل الذين سبقوه فقال سنة 1868 : "إنه من الواجب علينا أن نعدل عن الأخطاء التي ارتكبناها في الماضي فيجب ألاّ نحصر (الشعب الجزائري) في حظيرة القرآن كما فعلنا ذلك مدة طويلة". فاقترح تنصير الجزائريين أو إبعادهم إلى الجنوب[1] فقال : "يتعيّن على فرنسا إما أن تقدم (الشعب الجزائري) بل أني أخطأت التعبير، يتعيّن عليها أن تفسح لنا المجال لنقدم له الإنجيل وإما عليها أن تطرد هذا الشعب إلى الصحاري بعيدًا عن العالم المتمدن"[2].

وفي رسالة أخرى بيّن سبب هذه الرسالة، وهو مقاومة الجزائريين ضد الاحتلال الأجنبي : "إن القضية في جوهرها كما أكدنا ذلك مرارًا هي قضية هذا الدين الذي وقف أمامنا في غزو الجزائر نهائيا"[3]، ولهذا الغرض أسس لافيجري جمعية لنشر الدين المسيحي ثم أسّس جمعية المبشرين الذين يرتدون اللباس العربي وهم "الآباء البيض" سنة 1874- وقد أخطأت الإدارة الفرنسية في نظر لافيجري لأنها احترمت الإسلام ومؤسساته فطالبها بالتخلي عن مساعدة المساجد والمدارس الإسلامية التي تدعم

1. شارل أندري جوليان، نفس المصدر، ص. 440.
2. رسالة لافيجري، 6 أفريل 1868.
3. غروسنمير، ص. 153.

"تعصب الأهالي" فيجب أن تمنع هذه الإدارة تعليم القرآن وتسهيل أداء فريضة الحج[1]، وتناسى الأسقف أن الحكومة الفرنسية قد استولت سنة 1843 على الأوقاف الإسلامية التي كانت تسهر على شؤون المساجد والمشاريع الخيرية.

وتسهيلاً لإدماجهم رأى لافيجري أن تمنح أراضي للجزائريين المتنصرين ولم يوافق طبعا على "سياسة الاحترام" لأنها كانت تبحث عن معاملة الأهالي في ظل القرآن وكان يعتقد أن المسلمين لا يمكن أن يتصوروا المستعمرين إلاّ في شكل "كلاب مسيحيين" على حد تعبيره، فيجوز لهم أن "يذبحوهم ويرموهم في البحر"!.

وحق الكنيسة في تنصير الأهالي كان يبرره -في نظره- تخلف الإسلام الذي تسبّب في "انحطاط الشعب العربي من الناحية الأخلاقية"! ولهذا كان من الضروري إبعاد هذا الشعب عن الإسلام حتى يعود إلى ما كان عليه قبل القرن السابع الميلادي أي قبل الفتح الإسلامي، وسعى لافيجري أيضًا في أن يتولى التبشير في تونس بعد احتلالها سنة1881، فتعين أول أسقف في إفريقيا وكان مقره بقرطاجة[4] قريبًا من تونس، غير أنه لم يكتف بهذا النشاط في الجزائر وتونس وإنما دفعه الطموح إلى مواصلة التبشير في القارة الأفريقية كلها! وكان السبب في ذلك أن الإسلام قد انتشر في هذه القارة بصفة ملحوظة بحيث أن عدد المسلمين فيها بلغ خمسين مليونا خلال قرن واحد. فكان لابد من وضع حد لانتشار الإسلام، ووافقت روما الأسقف على ذلك وعيّنته "كاردينال" تقديرًا لعمله التبشيري (سنة 1882).

---

1. نفس المصدر، ص. 160.

3. نشاطه التبشيري

قضية اليتامى الجزائريين

شملت مجاعة كبيرة القطر الجزائري ما بين 1866 و1868[1]، فاغتنم لافيجري هذه الفرصة ليجمع عددا من اليتامى الجزائريين بموافقة السلطة العسكرية وطلب مساعدات مالية من المواطنين الفرنسيين وبعض المؤسسات ليبني ملجأ لهؤلاء اليتامى وقرّر أيضًا أن "يعمّدهم" وأن يربيهم تربية مسيحية وأن ينشئ لهم قرى فلاحية بعد رشدهم إلاّ أن الوالي العام "ماك ماهون" لم يقبل هذا المشروع وعارضه تخوفًا من غضب الأهالي ومقاومتهم العنيفة له، فحذّر الأسقف قائلا : "إذا علم الأهالي بواسطة الصحافة أنكم تريدون تنصيرهم بالقوة أو إبعادهم عن بلادهم، أفلا يقولون بأنكم تريدون اغتنام هذه الفرصة التعيسة التي يعانون منها ليضحوا بدينهم في مقابل الخبز الذي قدمتموه لهم ؟"- فردّ لافيجري بعنف على رسالة "ماك ماهون" : "إن هؤلاء الأطفال هم لي، لأن النفس التي هي فيهم أنا الذي حافظت لهم عليها، إذن فإن القوة وحدها هي التي يمكن أن تأخذهم من مآويهم". وفي الواقع إن الأولياء لم يطلبوا أطفالهم الذين استولى عليهم لافيجري وذلك لأنهم هلكوا عن آخرهم، وكانت أعمار اليتامى تتراوح بين الثامنة والعاشرة وبلغ عددهم 1753 طفلا في أول الأمر، إلاّ أنهم مات عدد منهم بسبب المجاعة والتعب فبقي 700 طفل فقط وزّعهم لافيجري بين عدة ملاجئ. وفي سنة 1870 بعث بعدد منهم إلى روما حيث تمّ "تعميدهم"[2]، ويصعب علينا أن

---

1. رسالة لافيجري، 6 أفريل سنة 1868.
2. الأستاذ تميمي(عبد الجليل) الحركة التبشيرية في تونس، مجلة الأصالة، العدد 30 محرم-صفر 1396هـ/ جانفي فيفري 1976، ص.49-61.

نتصور تعصبًا أعظم من هذا وعداوة أكثر صلابة ضد المسلمين الذين لم يراع الأسقف شعورهم إطلاقًا.

إنشاء القرى المسيحية

قرّر لافيجري إنشاء مراكز فلاحية لليتامى الذين نصرهم وبيّن الغرض من ذلك في رسالته المؤرخة بـــ : 16 أبريل 1878 فقال : "سنجد فيها (هذه القرى) بعد سنوات قليلة مجموعة كبيرة من العمال المفيدين الذين يساندون تعميرنا ويصيرون أصدقاء لنا أو بعبارة أخرى سنجد عربا مسيحيين"[1].

وفي سنة 1869 كان قد اشترى الأسقف لافيجري بعض الأراضي في وادي الشلف لينشئ قريتين لفائدة اليتامى المسيحيين وشيّد سنة 1872 قرية "سان سيبريان" تخليدًا لأسقف قرطاجة السابق، وقد اختار هذا المكان لأنه وجد فيه آثار كنيسة قديمة وأقام فيه 26 أسرة بعدما زوّج اليتامى الذين بلغوا سن الرشد ومنح لكل أسرة 20 هكتار صالحة للزراعة ومترلاً يتألف من غرفتين أو ثلاث غرف ومنحها تسبيقًا من النقود أو من المواد الزراعية وقد بنيت القرية حول الكنيسة، ويوجد في مدخلها بستان جماعي وإسطبل يأوي الحيوانات في المساء[2]، غير أن الأراضي لم تكن ملكًا لكل أسرة، ولكنها أجّرت لها بثمن رمزي وبهذه الطريقة ظلّ الفلاحون خاضعين لسلطة المبشرين، ثم أسّس الأسقف القرية الثانية بعد الأولى بقليل، وسمّاها "سانت مونيك" تمجيدًا لأم القديس أوغسطين، وتكوّنت القرية من 24 أسرة، وضمن المجموعة نجد عائلات منها "فرنسوا

---

1. أني ري، غولديغير، ص. 499.
2. بونس، ص. 312.

بن عيسى" و"جان الشريف" اللذان كانا يعيشان أولا في "سانت أوجين" قريبًا من بوزريعة[1]. وأقامت "الأخوات البيض" في القرية واعتنين بالتعليم والتربية، وفي سنة 1876، أنشأ لافيجري مستشفى "سانت إيليزابيت" بالقرب من القريتين، وشيّده بحضور شخصيات مدنية وعسكرية[2]، وأعجب قنصل بريطانيا بلافيجري إلى أن شبّهه بالقديس أوغسطين[3]!، واشتغل الفلاحون بالزراعة والرعي، كما أنهم اشتغلوا بالصناعات المحلية التي يحتاج إليها سكان القرية من نجارة وإصلاح العربات والحديد. وأنشئت كذلك بعض الدكاكين للتغذية العامة، ولم يختلط سكان القريتين بالمعمرين المسيحيين ولا بالجزائريين المسلمين، وكان لافيجري يخشى عليهم عادات المسيحيين السيئة كما كان يخشى من المسلمين أن يضطهدوهم أو أن يجلبوهم للإسلام[4] - وهذه العزلة المفروضة على سكان القريتين كانت لابد أن تؤدي إلى فشل المشروع طال الزمن أم قصر، وقد اعتنى "الأباء" و"الأخوات البيض" بتعليم اليتامى وتربيتهم الدينية وكانت تجمعهم الصلاة كل يوم بالسكان في كنيسة القرية. واقتصر تعليم الأطفال على المبادئ الأولى من القراءة والحساب ونشر"الوطنية الفرنسية"!، قال لافيجري : "بينما كان الفلاحون يشتغلون في القرية، كان اثنان من المبشرين يقومان بتعليم بعض الأطفال المساكين الذين التقطوهم..."[5]، ولم يكن من الضروري أن يجتاز هذا التعليم مستوى معيّنًا، فرفض الأب الذي اعتنى بتربية "جان بن عيسى" أن يقدمه إلى

---

1. كلاين، ص. 114.
2. نفس المصدر، ص.127-128.
3. نفس المصدر، ص. 128.
4. بونس، ص. 311.
5. غروسنمير، ص. 153.

امتحان الشهادة الابتدائية بدعوى أنه قد يتعلم أشياء كثيرة غير مفيدة، وقد يؤدي به نجاحه إلى التكبر والتطلع إلى شيء آخر غير الزراعة فيضطرب أمره[1]!، فالغرض من هذا التعليم إذن هو ربط هؤلاء الناس بالأرض وجعلهم مساعدين للمعمرين الفرنسيين.

وكان ذلك هدف لافيجري إذ كتب في إحدى رسائله : "هذا هو بالتأكيد الحل الأنسب للقضية الجزائرية الكبرى لأنه هو وحده الذي يجعل تحت تصرفنا هذه الآلاف من الأيدي العاملة من أجل الأعمال السلمية وقد كانت دائما مستعدة لتحمل السلاح ضدنا[2]، وقد لاحظ أحد مترجميه أن "فكرته الأساسية" هي "إدماج الجزائر في فرنسا عن طريق المسيحية"[3].

فشل لا فيجري

أراد لافيجري إنشاء قرى مسيحية أخرى ولكنه لم يتمكن من تطبيق مشروعه بسبب معارضة الإدارة والمستعمرين والجزائريين المسلمين.

1. خشيت الإدارة الفرنسية ما قد ينتج عن سياسة التنصير الجنونية هذه ورفضت إنشاء مراكز أخرى لأن الجيش عجز عن حمايتها، ولم يسمح بذلك ولم يرض "ماك ماهون" بنشوب حرب صليبية في الجزائر وإن كان قد ساعد لافيجري[4] في عملياته المالية سنة 1874 وألغى مجلس النواب هذه المساعدة من الميزانية التي بلغت 950 ألف فرنك سابقا[5].

1. كلاين، ص. 121.
2. غروسنمير، ص. 153.
3. غروسنمير، نفس المصدر، ص. 155.
4. شارل أندري جوليان، ص. 440.
5. كلاين، ص. 114.

2. أيّد المستعمرون لافيجري في أول الأمر ضد الحاكم العام "ماك ماهون" لأنهم كانوا يرغبون في إزالة الحكم العسكري ولكنهم عارضوا فيما بعد فكرته في إنشاء قرى مسيحية جديدة. وعبّر الطبيب "فارنيه" عن رأيهم في المساعدات المالية التي منحت لليتامى وكان نائبهم في المجلس الوطني- قد اتهم لافيجري بأنه لم ينفق إلاّ جزءاً قليلاً من المال كما أنه لم يوزّع الأراضي إلاّ على عدد قليل من الجزائريين المسيحيين وصاروا معزولين بين المسلمين، فاقترح الدكتور "فارنيه" على مجلس النواب توزيع المتنصرين بين الأسر الأوروبية ليكونوا في خدمة المعمرين[1].

3. أما المسلمون فقد أظهروا عداوتهم لمشروع التنصير منذ البداية فاحتج السيد ابن علي الشريف على رسالة لافيجري المؤرخة بالسادس أبريل 1868 برسالة وجّهها إلى نائب الوالي العام فقال: "لقد قرأت رسالة الأسقف المؤرخة بالسادس أبريل الماضي، والتي يقول فيها إنه يريد استبدال القرآن بالإنجيل من أجل إحياء الشعب العربي. لقد أثرت هذه الرسالة كثيرًا في المسلمين - إننا نفضل موت جميع أولادنا على تنصيرهم"[2] - وبعث 61 من أعيان الجزائر برسالة إلى "نابليون الثالث" عبّروا فيها عن سخطهم على رسالة الأسقف لافيجري، وفي منطقة القبائل، أدّى تعصب أحد المبشرين إلى معارضة السكان بحيث اضطر حاكم القطاع العسكري للمنطقة أن يطلب من المبشر مغادرة البلاد وذلك خوفا من ثورة دينية وهجر عدد كبير من أسر تيزي وزو و"فور- نابوليون" (فور ناسيونال) إلى سوريا سنة 1870[3].

---

1. كلاين، نفس المصدر، ص. 116.
2. آبي ري غولدزيغير، ص. 498.
3. نفس المصدر، ص. 300.

وأمام هذه المعارضة كلها وعدم الإمكانيات المالية، أرغم لافيجري على التخلي عن مشروع إنشاء قرى مسيحية أخرى وتوزع المسيحيون الجزائريون في البلاد وتوظفوا في مختلف القطاعات و لم يبق إلاّ 200 ساكن تقريبًا في القريتين المسيحيتين بوادي الشلف[1]، ولم يتقبل الأسقف فشله بسعة الصدر واتهم كل المعارضين بنوايا سيئة، فكتب إلى "ماك ماهون" مدعيًا أنه سيترك لليتامى كل الحرية، وإذا أرادوا أن يظلوا مسلمين عندما يبلغون رشدهم فسوف لن يمنعهم من ذلك، "وسيظل مخلصًا وحنونًا عليهم"[2]، وهذه الأبوية الغريبة لم تستطع أن تخفي غرضه التبشيري. وأما المعمرون فإنهم عارضوه في سياسته لأنهم كانوا "كفارًا"!، صحيح أن الدكتور"فارنيه"كان ينتمي إلى الاشتراكيين من أنصار"سان سيمون" ولكن موقفه كان موقفًا سياسيًا إذ كان غرضه تمليك الأراضي للمعمرين الأوروبيين فقط، لا للجزائريين ولو كانوا مسيحيين.

أما الجزائريون المسلمون، فقد اتهمهم لافيجري بكل الاتهامات كما أشرنا إلى ذلك. إنهم يمثلون "الهمجية" في نظره، وشنّ ضدهم حملات غريبة : "فالأغنياء منهم لا يساعدون إخوانهم الفقراء بل يطردون ويحاربون من يطلبون منهم الخبز"[3]! وبلغت به العنصرية إلى درجة أنه اتهمهم بأكل الإنسان! فقال : "لا يوجد اليوم في بعض المناطق منزل لم يؤكل فيه لحم الإنسان"[4]. حاول لافيجري عبثًا بهذه الاتهامات الكاذبة أن يغطي الواقع الأليم الذي لم يرد الاعتراف به وهو أن الغزو

---

1. بونس، ص. 313.
2. غروسنمير، ص. 300.
3. رين، ص. 85.
4. آبي ري، غولدزيغير، ص. 509.

العسكري واستلاب الأراضي قد حوّلاَ الجزائريين إلى بؤس لا يوصف ولاحظ هذه التعاسة أحد مترجميه السيد "كلاين" سنة 1890 في ضواحي القرى المسيحية بوادي الشلف[1]، وأجمع المؤرخون على أن هذه السياسة الظالمة التي تميّزت بالسرقة والنهب والتعصب هي التي جعلت الشعب الجزائري يقاوم الاستعمار ويثور عليه باستمرار إلى أن اندلعت حرب التحرير النهائية.

ماذا تبقى اليوم من القرى المسيحية بوادي الشلف ؟ شيء قليل إذا اعتمدنا على دراسة حديثة[2]، فقد غادر المسيحيون الجزائريون بلادنا إلى فرنسا سنة 1962، حسب ما ذكره الشيخ المهدي البوعبدلي.

وفي الختام يمكن القول بأن نشاط لافيجري قد ترك في الجزائر ذكريات سيّئة إلى يومنا هذا رغم تكيّف بعض المبشرين مع ظروف الاستقلال فمثلت حركة "الكاردينال" روح الاستعمار الحديث والحروب الصليبية القديمة، ولذا لا يمكن لحركة التبشير أن تنال ثقة المسلمين في الجزائر ولا في غيرها من البلاد الإسلامية[3].

---

1. كلاين، ص. 130.
2. البوعبدلي (الشيخ المهدي)- الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي مجلة الأصالة، العدد 08، ربيع الثاني–جماد الأول 1329هـ ماي – جوان 1972م، ص. 305–320.
3. نذكر من الآباء البيض خاصة ميشيل لولون (Michel lelong) الذي نشر كتابا فيما سنة 1975 تحت عنوان "إني لقيت الإسلام" كان طالبا في جامعة الجزائر وعاش مدة طويلة في تونس، وهو اليوم يشرف على حوار الكنيسة الفرنسية مع الإسلام وفي هذا الإطار ينظم الندوات والملتقيات مع بعض المسلمين وخاصة مع المغتربين المغاربة.

Bibliographie en langue française

1. L'abbé Dopigez, Souvenirs, 1840.
2. Louis Veuillot, les Français en Algérie, Tours, 1847.
3. De la conversion des musulmans, édit. J. Lecoffre, Paris, 1846.
4. Charles-André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, 2ème édit. P.U.F, Paris, 1979.
5. Général G. Spielman, Napoléon III et le royaume arabe d'Algérie, édit. Académie des sciences d'Outre-Mer, Paris, 1975.
6. A. Grussenmeyer, Le cardinal Lavigerie, édit. Jourdain, Alger, 1888.
7. P. Lesourd, les pères blancs.
8. Annie Rey-Goldziher, le royaume arabe. Edit. SNED, Alger, 1977.
9. A. Pons, la nouvelle Eglise d'Afrique, édit. Namura, Tunis, 1930.
10. A. Klein, Le Cardinal Lavigerie et ses œuvres en Algérie, édit. Pouissielgue, Paris, 1890.
11. L. Rinn, L'insurrection de 1871, édit. jourdain, Alger, 1891.